الفصل العاشر

صعود دول المحور وسقوطها

ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية

أنهينا الآن مسحاً لكافة القوى المطلقة في تاريخ العالم، مع ملاحظة أن كل واحدة من هذه القوى كانت مدينة في ارتقائها لهذا الموقع إلى حد كبير للتسامح. لكن ما لم نقم به حتى الآن هو إجراء دراسة لقوى التعصب في العالم؛ وهو ما يتطلع هذا الفصل إلى القيام به من خلال تمحيص قوة التعصب المتنقل القاتلة، وكذلك، القيود المتأصلة في تكوينه وطبيعته.

ليس بمقدور أي مجتمع يبنى على قاعدة أساسها النقاء العرقي والتطهير العنصري أو التعصب الديني أن يصبح قوة عالمية. ولكن ما حدث في منتصف القرن العشرين أن نظامين متعصبين وحشيين وهما ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية، امتلكا قوة هائلة، وهددا مجتمعين، بالاستيلاء على العالم. كان الصعود الصاروخي لدول المحور، ثم الهزيمة الماحقة التي حلت بها يمثلان في الوقت نفسه الفعالية المرعبة للتعصب المتطرف، وعجز المجتمعات التي تقوم على قاعدة هذا التعصب في نهاية المطاف، عن تحقيق هدف السيطرة العالمية.

obeikandl.com

ألمانيا النازية: حلم السيطرة الآرية على العالم

في الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر يوم الحادي والعشرين من شهر حزيران، يونيو، سنة ١٩٤٠، هبط أدولف هتلر وكبار قادته وسط غابة "كومبيين" التي تقع على مسافة خمسين ميلاً إلى الشمال من باريس، وذلك من أجل الإشراف بنفسه على واقعة استسلام الفرنسيين. اختار هتلر شخصياً هذه الغابة المجوّفة التي كانت منطقة صيد للملوك الفرنسيين على امتداد ألف سنة، كما أنها المكان الذي ألقي القبض فيه على جان دارك، بسبب مكانتها في التاريخ الأكثر قرباً؛ فقد كان هذا المكان هو الموقع الذي استسلمت فيه ألمانيا لفرنسا في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة ١٩١٨، واضعة بذلك حداً للحرب العالمية الأولى. وفي الوقت الذي كانت أشعة شمس شهر حزيران الدافئة تغلف ذلك المكان، ترجل هتلر من سيارته المرسيدس. كان وجهه بحسب رواية أحد شهود العيان، يبدو «رزيناً ووقوراً، لكنه كان يطفح بالرغبة في الانتقام. كما كانت تقاطيعه توحي تماماً كخطواته الخفيفة الحركة، بالشعور بأنه الفاتح المنتصر، والمتحدي للعالم بأسره.» أصر "الفورهر" على إملاء شروط الاستسلام في عربة القطار نفسها التي استسلمت فيها ألمانيا لفرنسا قبل اثنتين وعشرين سنة. بعد يوم من المحاولات الفاشلة للتخفيف من وطأة شروط الاستسلام القاسية، لم يجد الجنرال بيتان، البطل الفرنسي في معركة فردان، بداً من الإذعان كلياً لمطالب النازيين. [(١)]

كان هذا التبدل العكسي في المصائر الذي شهدته غابة كومبيين مؤشراً على ذروة قوة هتلر وألمانيا النازية. فألمانيا التي انبعثت من بين ركام الحرب العالمية الأولى، لم تكتفِ بإعادة تسليح ذاتها، وإعادة الحياة إلى صناعتها خلال أقل من عقد وحسب، لكنها انطلقت لاحتلال معظم قارة أوروبا في مدة لم تتجاوز تسعة أشهر. في الوقت الذي تم إخضاع فرنسا، كانت النمسا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا والدانمرك والنرويج وهولندا قد وقعت جميعها في قبضة النازيين الذين كانوا

يستعدون لغزو بريطانيا. قبل ذلك بسنة، شن الألمان بجيشهم الذي بدا وكأنه لا يقهر، حرباً خاطفة على بولندا مستخدماً «قوة ماحقة وحشية مؤللة لم ترَ لها الكرة الأرضية مثيلاً.» بعد مضي سبع سنوات فقط على استلام هتلر للسلطة سنة ١٩٣٣، لم يبدُ الوعد الذي أطلقه النازيون «بحكم للرايخ يمتد لألف سنة قادمة» بعيد المنال.

بعد خمس سنوات على تلك الحادثة، كان كل شيء قد انتهى. أعلن عن موت هتلر، وتحولت ألمانيا إلى أنقاض. كان نظام هتلر في مرحلة ارتقائه نحو السلطة قد أوصل التعصب المدعوم من قبل الدولة إلى مستوى جديد أسس «لنشر الإرهاب بين الشعوب المستعمَرَة، وهو إرهاب فاق في وحشيته ضد الحياة الإنسانية والروح الإنسانية كل أشكال الاضطهاد الوحشي الذي ارتكب في العصور السابقة.» (٢) كان التعصب الوحشي الذي مارسته النازية أكثر من مجرد نتاج جانبي لسيطرة النازيين على السلطة؛ فقد كان عاملاً حاسماً لحشد الطاقات في أعقاب الحرب العالمية الأولى. نجحت الأيديولوجية النازية التي كانت مزيجاً فعالاً من القومية المتشددة والشوفينية العرقية والكراهية الدينية، بشكل فاعل في حشد الولاء والاستعداد للتضحية من الشعب الألماني الذي تعرض للإذلال جراء الهزيمة في الحرب العالمية الأولى. لكن الالتزام غير القابل للشك من قبل هتلر وحزبه بمبدأ التطهير العرقي الدموي أثبت في نهاية المطاف أنه سرطان بشع أوغل في جسد النظام، وأدى في النهاية إلى انهيار ذلك الحزب وتلاشيه.

قوة الكراهية

جعلت الحرب العالمية الأولى من ألمانيا أمة مَدّميّة ومهزومة. فقد هلك حوالي مليونين من شبابها في تلك الحرب، وأصيب عدد مشابه من شبابها بعاهات مستديمة. كما وجد الملايين من الألمان من الطبقتين المتوسطة والعاملة أنفسهم عاطلين عن العمل ويعانون من الفقر المدقع. وكانت معاهدة فرساي قد عمقت الشعور بالمرارة لدى الألمان. فرضت هذه الاتفاقية على ألمانيا سنة ١٩١٩ الاعتراف

بأنها المسؤولة الوحيدة عن اندلاع الحرب العالمية الأولى. نتيجة لذلك، ألقي على كاهل ألمانيا كافة أعباء إعادة بناء ما تسببت تلك الحرب في تدميره، كما تم انتزاع كافة المستعمرات التي كانت تحت سلطتها، وأجبرت على التخلي عن بعضٍ من أهم أجزاء أراضيها لفرنسا، وللبولنديين الذين كانت تكن لهم أشد أنواع المقت. ومن ضمن القيود الأخرى المهينة التي فرضت على ألمانيا كانت تقليص عدد الجيش الألماني المعتد بنفسه والذي كان يوماً ما، جيشاً هائل العدد والعدة. فقد تحول إلى جيش من المتطوعين لا يتجاوز تعداده مئة ألف جندي. شعر العديد من الألمان أنه لم يكن من الحكمة القبول بشروط تلك المعاهدة المذلة. وهكذا، فقد توقع جون كينز، المستشار في الوفد البريطاني بكثير من التشاؤم، في أن هذا السلام يحمل في طياته بذور الحرب المقبلة[٣].

ظهر هتلر وحزبه النازي من ضمن هذه البوتقة من الإحساس بالعار والألم والغضب المكبوت. كان من نتاج الإحساس بتفوق العرق الآري من جهة، ونظريات المؤامرة حول خطط شيوعية- يهودية، بالإضافة إلى دعوات من هنا وهناك من أجل إبادة الجماعات الأدنى عرقياً من جهة أخرى، تعهد هتلر بالعودة إلى الماضي الألماني الأساسي؛ وترافقت مع هذه العودة نزعة باتجاه إعادة بناء دولة ألمانية توسعية قوية في ظل قيادته. بدأ هتلر ومؤيدوه باضطهاد اليهود والشيوعيين والسلافيين والمثليين، وكذلك أي شخص آخر ليس «ألمانياً» بما فيه الكفاية. قام هتلر بتحميل هؤلاء مسؤولية التضخم الهائل، والبطالة، وغياب ألمانيا عن الساحة الدولية؛ وهو ما كانت تعاني منه ألمانيا حينها. كانت خطابات هتلر النارية حول تفوق العرق الآري التي ألهبت المشاعر الشعبية مادة خصبة في لغة الخطاب النازي. كان أحد الاتهامات التي تتكرر في تلك الخطابات تؤكد على أن الأقليات «طعنت ألمانيا في الظهر»، وهو ادعاء اعتاد النازيون على ترداده من خلال التساؤل عن السبب الذي أدى إلى خسارة ألمانيا للحرب الكبرى من دون أن تتعرض لغزو بري.

خلال عشرينيات القرن العشرين وبداية الثلاثينيات، كانت قلة فقط من

obeikandi.com

السياسيين الألمان تعتقد باحتمال خطر أن يستلم النازيون السلطة في ألمانيا. لكن النازيين تحولوا من مجموعة من المشاغبين في الأزقة الضيقة إلى حركة ذات قاعدة عريضة نجحت في الحصول على أصوات ٤٣ بالمئة من الناخبين الألمان سنة ١٩٣٢ بفضل التحالف الذي جمع كبار رجال الأعمال، والعسكريين، وفوق هذا وذاك، الطبقة الوسطى في المجتمع الألماني؛ وبذلك فقد مهدوا الطريق لهتلر كي يصبح المستشار الألماني القادم سنة ١٩٣٣[٤].

ربما كان من باب تقزيم الأمور وصف النظام النازي بالنظام «المتعصب». فقد شملت الكراهية العرقية كل مجال من مجالات السياسة النازية بدءاً بالصحة، مروراً بالزراعة وانتهاء بسياسة الدفاع. ونظراً لأن الاهتمام الرئيس للحزب النازي كان ينصب على التزامه بموضوع القومية الألمانية، فإنه لم يولِ إلا القليل من الاهتمام للسياسة الاقتصادية. (سمع الهتاف الآتي في أحد تجمعات الحزب النازي: لا نريد سعراً أعلى للخبز! لا نريد سعراً أدنى للخبز! لا نريد سعراً ثابتاً للخبز! نريد سعراً قومياً اشتراكياً للخبز!) لخّص المؤرخان رودريك ستاكلبيرغ وسالي وينكل التوجه الوحيد للسياسة النازية على الشكل الآتي: «لم يكن لدى هتلر أي رؤية حول الإصلاح الاجتماعي الداخلي سوى التخلص من اليهود ومن كل أشكال التنوع والسلالات الأخرى في المجتمع الألماني، وإنشاء نظام سلطوي يستند إلى العرق، ويهيئ الشعب من أجل الحرب.»

بالرغم من أن اليهود كانوا المستهدَفين الرئيسيين من التعصب النازي، فإنهم لم يكونوا الوحيدين: حيث رُحِّل الغجر والبولنديون والمثليون والمقعدون والمرضى ومجموعات أخرى إلى معسكرات الاعتقال، وتجمعات العمل بالإكراه، والإعدامات العشوائية. كان يعشش في جوهر النازية الاعتقاد الذي لا يشوبه الشك بأن الآريين هم العرق الأسمى، أو «العرق السيد»، وأن دورهم الطبيعي هو أن يكونوا حكاماً للعالم بأسره[٥].

كلفة التعصب

أسهم اضطهاد النازيين لليهود والجماعات الأخرى في إثراء الحزب ومن ثَم تمويل آلة الحرب الألمانية – لكن ذلك لم يدم إلا حقبة عابرة في التاريخ. قامت الدولة أولاً بوضع يدها على البنوك والتجارة اليهودية. بعدها، تم تجميع اليهود وإرسالهم ضمن مجموعات إلى أحياء خاصة بالأقليات أو إلى معسكرات الاعتقال، ومصادرة ممتلكاتهم: ساعات الجيب، والقلائد الذهبية، وحلق الأذن، ودبابيس الزينة والأساور والخواتم الماسية. كما تم وضع اليد على بيوت اليهود وسياراتهم ومقتنياتهم الفنية و«كميات هائلة من اللفافات النقدية». أخيراً وليس آخراً، وجهت أوامر لفرق الاستخبارات الخاصة (SS) لسحب الحشوات الذهبية من أسنان اليهود الذين كانوا يرسلون إلى غرف الغاز، وكان ذلك يتم أحياناً قبل إعدام الضحايا. كانت هذه الحشوات تذاب وتوضع مع بقية الغنائم في حساب سري بأحد البنوك التابعة للرايخ باسم مستعار هو "ماكس هيلليغر" [٦].

لكن التزام النازيين بإبادة الشعوب «الأدنى» كلف النظام غالياً في العديد من المجالات الحاسمة. بدايةً، كان تنفيذ أحكام الإعدام بأولئك الذين لا يمكن التعايش معهم في «النظام الجديد» يتطلب موارد غير محددة ووقتاً، وأشخاصاً من ذوي المواهب الخاصة للقيام بذلك. كان لا بد من إعداد طاقم بيروقراطي كبير يقوم بتحديد أماكن وجود اليهود، وإحصاء أعدادهم وتصنيفهم استناداً إلى أدق تفاصيل تصنيفات النسب المئوية في دمائهم. وكانت الوتيرة المكثفة التي تتم فيها عملية التطهير العرقي التي يقوم بها النازيون تتعارض مع متطلبات الحرب الملحة.

على سبيل المثال، كانت وحدات كاملة من الاستخبارات الألمانية مكرسة من أجل حراسة المساجين في معسكرات الاعتقال النازية. استخدمت مواد غالية الثمن مثل الرخام والحجر الرملي والنيكل المصقول بإسراف على بناء المحارق وغرف الغاز. كما تم حجز قطارات خاصة من أجل نقل اليهود إلى أماكن إعدامهم حتى في الأوقات

التي كان الألمان يجمعون وحداتهم من أجل إرسالها إلى القتال. وفي شتاء سنة ١٩٤٢، عندما كان الجنود الألمان محاصرين في معركة ستالينغراد الحاسمة، تدخل هنريك هيملر قائد الاستخبارات الألمانية شخصياً كي يحول خط سير القطارات التي كان الجيش الألماني بأمس الحاجة إليها من أجل قتل مزيد من اليهود. خاطب هيملر رئيس مصلحة السكك الحديدية قائلاً: «أعرف تماماً الكلفة الباهظة التي تتكبدها مصلحة الخطوط الحديدية، وثقل المسؤوليات الملقاة على كاهلك. لكنني مع ذلك، لا بد أن أطلب إليك أن تساعدني في وضع قطارات أكثر تحت تصرفي.» لقد اختار النازيون في أحلك ساعاتهم الكراهية العنصرية التي أولوها أهمية أكبر مما أولوه للنصر العسكري [٧].

الأهم من ذلك، حرم النازيون أنفسهم، بسبب عمليات قتلهم الملايين من رعايا الدول التي غزوها، بالإضافة إلى مئات الآلاف من مواطنيهم الألمان، من رأسمال بشري وقوة بشرية لا تحصى. وكما أشرنا سابقاً، كانت ألمانيا قد خسرت أعدادا كبيرة من علمائها بمن فيهم ألبرت أينشتاين، وثيودور فون كارمان، ويوجين ويغنر، وليو زيلارد، وهانز بيث، وإدوارد تيللر، وليز ميتنر الذين أدى الكثيرون منهم دوراً حاسماً في بناء أول قنبلة ذرية في العالم، والتي استخدمتها الولايات المتحدة في كسب الحرب. من يعرف كم من العقول العظيمة الأخرى خسرتها ألمانيا النازية؟

كان كل شيء في ألمانيا النازية يمر عبر عدسة التفوق العرقي الألماني. وكان من المضحك أن يقوم العالم النازي برونو ثورينغ بالتهجم على نظرية النسبية التي أتى بها أينشتاين لأنها تتناقض مع «المفهوم الغريزي الإسكندينافي لمعنى الطاقة.» أودى الرفض النازي للعلم «اليهودي» بألمانيا إلى التخلف كثيراً في مجال تطوير الرادار، وهي تكنولوجيا أثبتت فاعليتها المحورية في انتصار الحلفاء في "معركة بريطانيا". في غضون ذلك، كانت ثقة النازيين المفرطة بتفوقهم العلمي قد أعمتهم عن احتمال أن يكون الحلفاء استطاعوا اختراق شيفراتهم؛ وكانت تلك خطيئة جسيمة أخرى[٨].

«مطرودون أو مُبادون؛ لا مندمجون»

عندما اقتحمت القوات الألمانية الجبهات الغربية للاتحاد السوفيتي لأول مرة، كانت غالباً ما تستقبل كقوات تحرير خصوصاً من قبل الأوكرانيين وشعوب دول البلطيق الذين كانوا يتعرضون منذ مدة طويلة للإرهاب الذي سببته السيطرة السوفيتية على بلدانهم. وشعر بعض كبار ضباط الجيش الألماني أنه «لو لعب هتلر أوراقه بشكل جيد من خلال تعامله مع الشعب الروسي باحترام، وإطلاق وعود بشأن تخليص ذلك الشعب من الممارسات البلشفية القمعية ... لكان من الممكن استمالة الشعب الروسي.»

كان هذا الأمر أكثر ما ينطبق على أوكرانيا حيث كانت الأيديولوجية النازية تحظى بشعبية واسعة، وحيث كان يتوق العديد من الأوكرانيين للتحرر من ربقة الاتحاد السوفيتي. ولكن، بدلاً من ضم ألوية من الجيش الأوكراني للقتال ضد الجيش السوفيتي، لحقت فرق الموت التابعة للاستخبارات الألمانية (SS) بالجيش الألماني مباشرة وكانت لديها أوامر بإخضاع السكان المحليين واستعبادهم وقتلهم. قام النازيون إضافة إلى إبادة سكان أوكرانيا من اليهود بالكامل تقريباً، بذبح ما يقرب من خمسة ملايين من سكان أوكرانيا من غير اليهود[٩].

لم يكن هتلر يعنيه أن يستقطب أصحاب المواهب من الشعوب التي استعمرها وذلك بعكس جنكيز خان. وكذلك على العكس من الرومان، لم يكن مهتماً بدمج تلك الشعوب المستعمرة مع بلاده. كان مهتماً بدلاً من ذلك بضم أراضي تلك الشعوب. كانت العلاقات الدولية بالنسبة لهتلر «صراعاً من أجل احتلال المواقع بالأساس»، وهو صراع «يفوز فيه الأقوى، ويستولي على الأرض، ويستوطن تلك الأرض، ثم يقاتل من جديد من أجل أرض إضافية.» أصبح الصراع من أجل «الأرض التي تشكل المجال الحيوي لألمانيا» يشكل محور السياسة الخارجية النازية. أعلن هتلر في كثير من خطبه التي أذاعها عن نيته في تحقيق هذا الحلم من خلال «الاستيلاء على

مناطق جديدة، وطرد سكانها المحليين أو إبادتهم، وليس الاندماج معهم.» بالنسبة لهتلر، فإن السلام العالمي لا يمكن تحقيقه إلا «عندما تكون قوة واحدة هي الأفضل والأرقى عرقياً قد حققت التفوق الكامل الذي لا ينازعها فيه أحد.»

لم يطل الأمر بهتلر قبل أن يثبت أن «مفهوم المجال الحيوي» بالنسبة لألمانيا ليس مجرد عبارات جوفاء. كان ذلك المجال الحيوي لألمانيا بالنسبة إلى النازيين يتكون بشكل رئيس من بولندا وأوكرانيا وروسيا. كان هتلر يعتبر أن الشعوب السلافية تنتمي إلى عرق «غير قادر على إدارة دولة أو تطوير ثقافة.» ومن ثَم، فقد وجهت السياسة النازية الجيش الألماني إلى ضرورة إبادة أو استعباد البلاشفة الذين هم «دون مستوى البشر». وكانت الخطة تقضي «بإزالة مدن عظيمة في الشرق مثل موسكو ولينينغراد ووارسو من الوجود»، وأن يتم «القضاء على ثقافة الروس والبولنديين والسلافيين»[١٠].

من البديهي القول إن تلك السياسات لم ترقَ للشعوب التي فتحها النازيون. اعترف بعض كبار المسؤولين الألمان بأن الخط المتشدد المعادي للشعوب السلافية، الذي اتبعه النازيون كان سوء تقدير إستراتيجي أفرز عواقب وخيمة. على سبيل المثال، كتب أفريد روزنبرغ وزير الرايخ لشؤون الشرق، وكان قومياً آرياً متعصباً، سنة ١٩٤٢ أن « أفضل هدية كان يمكن لألمانيا أن تتلقاها» في الحرب تتمثل في دعم شعوب الاتحاد السوفيتي الساخطة على النظام. وكانت وجهة نظر روزنبرغ وبعض رفاقه تقضي بأن العديد من رعايا الاتحاد السوفيتي كانوا راغبين بالقتال إلى جانب الألمان من أجل الحصول على حكم ذاتي قومي واستقلال عن الاتحاد السوفيتي.» وكان البولنديون على وجه الخصوص، الذين يكنون مشاعر العداء للسامية، يعتبرون أنفسهم حلفاء طبيعيين للألمان. إلا أن هتلر بقي ملتزماً بخطة «الإبادة وليس الاندماج»، معتبراً البولنديين «أوروبيين شرقيين من فصيلة الصراصير» الذين «ليس لديهم الحق في الحياة»، اللهم إلا إذا كانوا عبيداً لأسيادهم الألمان[١١].

أدت سياسة الإبادة الجماعية التي اتبعها المحتلون النازيون، بالإضافة إلى هدفهم المعلن في الحصول على «مجال حيوي» أوسع لألمانيا، إلى تأليب شعوب الاتحاد السوفيتي ضد النازيين ومقاومتهم بتصميم لم يكن بمقدور القادة الستالينيين القيام به من دون تلك المساندة الشعبية. وبالرغم من أن الاتحاد السوفيتي فقد أكثر من عشرين مليون قتيل إلا أن الجيش الأحمر تابع القتال. ولكن لو اختار هتلر أن يتبع إستراتيجية أكثر تسامحاً واندماجاً مع الشرق، فإن تصور النجاح الذي كان يمكن للإمبراطورية النازية أن تحققه يصيبنا بالقشعريرة.

كانت هناك احتمالات للتعاون حتى في أوروبا الغربية؛ لكن النازيين بددوا تلك الاحتمالات من خلال تعصبهم الضاري والفظائع التي ارتكبوها. فعلى سبيل المثال، بعد أن نجح الألمان في اجتياز خط ماجينو، والحقوا الهزيمة بالفرنسيين، أبدى القادة الفرنسيون من حيث المبدأ الرغبة في التعاون. كانت المقاومة الفرنسية في واقع الأمر صغيرة في بداية الأمر، وكانت تقتصر في الغالب على المثقفين اليساريين والاشتراكيين، وفي وقت لاحق، الشيوعيين. لكن سياسة ألمانيا في فرض العمل القسري على الذكور الفرنسيين البالغين، والقتل المجاني للمدنيين في بلدات مثل "أورودور سور غلين" أدت إلى اندلاع أعمال المقاومة مما سهّل في نهاية المطاف على قوات الحلفاء القيام بغزو النورماندي ، وقلب موازين الحرب.

لم يكن هتلر يشبه سايروس العظيم من قريب أو بعيد. لم يكن ليجثو أمام البابليين الذين فتح بلادهم من أجل كسب ولائهم. كانت الأيديولوجية النازية تنظر إلى الشعوب المستعمَرة على أنها جماعات «دون مستوى البشر» لا بد من إبادتها كي تفسح المجال لأسيادها العرقيين. وضع المؤرخ كلاوس فيشر يده على جوهر المعضلة النازية عندما كتب أنه «بالرغم من وجود ذلك الكم الهائل من المهارات وكفاءة الأداء» التي تعزز مهمة هتلر في «إخضاع الشعوب المستعمَرة وإبادة الجماعات التي تنحدر من أصول دونية بتلك الطريقة الوحشية»، فإن «تلك المهمة الوحشية كان لا بد من أن تثور في وجهها مقاومةٌ شرسة» [١٢].

اليابان الإمبراطورية: الفتوحات التي قامت بها أكثر الشعوب «طهارة»

لم تكن ألمانيا الوحيدة بين دول المحور التي كانت لها تطلعات نحو الهيمنة على العالم. كشف وزير الخارجية الياباني في الأول من شهر آب، أغسطس، سنة ١٩٤٠ عن خطة تبنتها اليابان حول نيتها في التوسع الإقليمي . كان ما أطلق عليه "الفضاء الكبير للشرق الآسيوي الذي يتم فيه تقاسم الازدهار" - والذي سيتم غزوه من قبل الجيش الإمبراطوري، ويتم توحيده تحت الحكم الرحيم والخيّر للإمبراطور الياباني - سيتوسع باطراد على أربع مراحل.

كان من المأمول أن تضم المرحلة الأولى من هذا الفضاء إلى محوره كلاً من كوريا ومنشوريا وجنوب الصين وتايوان التي ستكون جميعها تحت السيطرة اليابانية خلال سنتين. في المرحلة الثانية، تقوم اليابان بالاستيلاء على البقية الباقية من الصين، بالإضافة إلى المستعمرات الأوروبية السابقة مثل الإيست إنديز الهولندية (إندونيسيا حالياً) والهند الصينية التي كانت تابعة لفرنسا (بما فيها كمبوديا الحالية وفيتنام ولاوس)، وبورما وتايلاند وماليزيا وأستراليا ونيوزيلندة. وستتوسع اليابان في المرحلة الثالثة بحيث تصل إلى الأراضي السوفيتية الشرقية والفيليبين والهند. أخيراً، سيتم الانتقال باتجاه آسيا الوسطى وأجزاء من الشرق الأوسط بما في ذلك إيران والعراق وتركيا بحيث تكون كافة هذه المناطق خاضعة للسيطرة اليابانية.

اعتقد اليابانيون أن من حقهم، وكذلك من واجبهم الأخلاقي، أن يتبوءوا موقع القيادة في ذلك الفضاء المشترك باعتبار أنهم «العرق السيد» في هذا الفضاء. فوق هذا وذاك، أعطي لقارة آسيا تعريف واسع وشامل. كان رسّامو الخرائط اليابانيون في زمن الحرب يعرضون كلاً من أوروبا وأفريقيا باعتبارهما جزءاً من قارة آسيا؛ كما وصف مسؤولون حكوميون يابانيون أمريكا بأنها «الجناح الشرقي» لآسيا. قال الإمبراطور هيروهيتو إن هذا الفضاء المشترك «سيساعد كافة الأمم والأعراق في

تبوء مكانتها الصحيحة في العالم» - بحيث تكون اليابان متربعة على عرش هذا الفضاء بطبيعة الحال [١٣].

لكن هذه الخطة المتغطرسة تحولت، شأنها شأن اليابان نفسها، إلى أشلاء بحلول سنة ١٩٤٥. لقد كان التعصب القاعدة التي انطلقت منها تلك الأحلام حول السيطرة اليابانية على العالم، وكان في الوقت نفسه السبب في دمار الإمبراطورية اليابانية.

مفهوم اليابان المتناقض والمثير للاستغراب حول «العِرْق»

قام الكتاب اليابانيون في بداية القرن العشرين بتوليفة تتضمن أفكاراً غربية تتعلق بالعرق مع الفلسفة الكونفوشيوسية والأفكار المنبثقة عن الديانة اليابانية: «الشنتو» التي ترتكز على الطهارة الروحية والأخلاقية، من أجل الخروج برؤية يابانية جديدة عن العالم. تحولت اليابان باتجاه الحداثة خلال الحقبة التي كانت فيها الداروينية، وما يسمى العنصرية العلمية عملة رائجة في الغرب. كان العلماء وعلماء الاجتماع الغربيون يحاولون تقديم نظرية تتضمن «دليلاً تجريبياً» تثبت الدونية البيولوجية للآسيويين والسود والشعوب الأخرى من الملونين. في الوقت نفسه، بدت دبلوماسية الزوارق الحربية، والمعاهدات التي تفرض بالإكراه، والتطور الاقتصادي الغربي المتفوق وكأنها تثبت دونية آسيا (وبالطبع اليابان). رد المفكرون اليابانيون القوميون بابتداع شكل من أشكال التاريخ الأسطوري الذي قلب موقع اليابان الدوني رأساً على عقب من خلال التأكيد على البعد الإلهي للخط الإمبراطوري، وكذلك على «نقاء» الشعب الياباني وفضائله الأخلاقية الأرقى.

كانت القصة التي رواها اليابانيون لأنفسهم عن أنفسهم تبريراً منطقياً لفتوحاتهم وتسيدهم واستغلالهم للآخرين. أعلن ناكاجيما تشيكوهي سنة ١٩٤٠، وكان أحد كبار الصناعيين، وواحداً من القادة السياسيين «أن هناك شعوباً أرقى

وشعوباً أدنى في العالم، وأن الواجب المقدس المنوط بالعرق الأرقى يحتم عليه أن يكون في موقع القيادة وينير الطريق أمام الشعوب الأدنى»[١٤].

في ذات الوقت، كانت الأساطير التي وضعتها اليابان في خدمة توجهاتها مليئة بالمفارقات والتناقضات. فقد رأى اليابانيون أنفسهم ليس فقط «الأنقى» عرقاً بين الشعوب، بل بيضاً من ناحية اللون. كانت البشرة الناعمة البيضاء دائماً محل تقدير واحترام بين اليابانيين منذ القرن الثامن على الأقل. ارتبط لون البشرة الفاتح بالجمال الشخصي، وبالوضع الاجتماعي الرفيع المستوى. من هنا جاءت فكرة طلاء وجه الراقصات اليابانيات أو الممثلين باللون الأبيض. لكن بحلول القرن العشرين، ازداد هوس اليابانيين بمسألة البياض بسبب إحساس بعقدة الدونية تجاه الغرب. كانت الطبعات على الرسومات الخشبية منذ زمن الحرب الصينية اليابانية الأولى تصور اليابانيين ليس فقط كأشخاص طوال القامة ومن ذوي البشرة البيضاء، وإنما بملابس على النمط الغربي. في المقابل، كان الصينيون يصورون كأشخاص صفر البشرة، قصار القامة وممتلئي الجسم، ويرتدون الأردية الشرقية[١٥].

كانت العنصرية اليابانية التي مورست على الأخص على سكان المستعمرات اليابانية في جنوب المحيط الهادي تمثل صدى كاملاً تقريباً للعنصرية الأوروبية. وصفت تقارير رسمية يابانية سكان الجزر المايكرونيزية الواقعة شرق الفيليبين بأنهم «شعب من الكسالى والبدائيين والدونيين» الذين ليس بإمكانهم التخلي عن «عاداتهم الداعرة وهمجيتهم ... وفسوقهم.» واستناداً إلى ما ذكره أحد الباحثين اليابانيين في خمسينيات القرن العشرين، «فإن طرائق تفكيرهم طفولية بسبب أن حياتهم في غاية البساطة والبدائية ... فهم لا يمتلكون الرغبة في تحسين أوضاعهم، ولا روح التغيير. وتنحصر متع الدنيا عندهم في الطعام والرقص وإشباع رغباتهم الجنسية.» نتيجة لذلك، «فإن هؤلاء الناس الاستوائيين بحاجة ملحة إلى اليابانيين كي يرشدوهم إلى الاتجاه الصحيح.»[١٦].

أما بالنسبة للصينيين والكوريين، فقد كان على اليابانيين أن يخرجوا على العالم بقصص وتبريرات أكثر تعقيداً. ففي المحصلة، لا يمكن التمييز من حيث الشكل، بين اليابانيين وكثير من الصينيين أو الكوريين، كما أن هذه البلدان الثلاثة تتقاسم الكثير من العادات والتقاليد الثقافية. كتب أراكاوا غورو، رئيس تحرير إحدى الصحف اليابانية وعضو البرلمان الياباني، عن الكوريين سنة ١٩٠٥ ما يأتي:

ليس هناك ما يجعلهم مختلفين عنا. فهم يشبهون إلى حد بعيد اليابانيين، إنهم ينتمون إلى العرق الشرقي نفسه، ولهم اللون والمظهر الجسدي نفسه، لون الشعر الأسود نفسه. ... فلو أخذنا بعين الاعتبار أن مظهر وبنية الكوريين واليابانيين هي ذاتها بشكل عام، وأن تراكيب وقواعد اللغتين متطابقة إلى حد بعيد، وأن تقاليد الشعبين القديمة متشابهة مع بعضهما بعضاً، لتبادر إلى ذهنك أن اليابانيين والكوريين ينتمون إلى النموذج البشري نفسه.

إلا ان غورو يتابع موضحاً أن هذه التشابهات السطحية خدّاعة:

لو أمعنت النظر [إلى الكوريين] لوجدت فيهم شيئاً من البلاهة؛ أفواههم مفتوحة وأعينهم زائغة، وإلى حد ما، يعوزها التركيز. ... وستجد على أطراف أفواههم، وفي تقاطيع وجوههم بعض التراخي. أما فيما يتعلق بمسائل النظافة والأمراض، فإنهم منفلتون تماماً. لو قمنا في واقع الأمر، بتوصيف لهؤلاء بأسوأ العبارات، لجاز لنا القول إنهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى بني البشر (١٧).

كانت تتم مقارنة كل فضيلة يابانية بنقيصة كورية. فاليابانيون أطهار ونظاف، بينما الكوريون «وسخون» وقذرون. اليابانيون يتمتعون بروح الإيثار، أما الكوريون فهم أنانيون. اليابانيون منظمون وعصريون، لكن الكوريين بالمقابل، «برابرة» و«فوضويون». كان اليابانيون يعتقدون أن تعقيدات الحياة الحديثة أكبر بكثير من قدرة الكوريين على استيعابها؛ لأنه ليست لديهم المقدرة العقلية للعمل حتى بصفتهم موظفين في محطات السكك الحديدية بسبب أنهم «عاجزون تماماً عن إحصاء عدد بطاقات المسافرين التي قاموا بثقبها.» وهم «مثل غالبية البدائيين البرابرة، عاجزون عن فهم العمليات الحسابية الدقيقة.» الأسوأ من هذا وذاك، فهم متمرسون في الكذب «ولعب القمار والغش والسرقة وارتكاب الفاحشة.»

من ناحية أخرى، فبالرغم من أن الكوريين كسالى بطبيعتهم، إلا أنهم «يمتلكون درجة غير معقولة من القدرة على التحمل»، وبالتالي فهم حيوانات مثالية لحمل الأثقال. شرح غورو هذه الظاهرة بالقول «إن الكوريين يمتلكون قوة بدنية عظيمة تمكنهم من حمل البضائع الثقيلة؛ وهم قادرون في الواقع على حمل أشياء أكثر وزناً مما تستطيع الخيول اليابانية حمله. سمعت بأنه من المألوف بالنسبة للكوري أن يقوم بحمل أثقال تبلغ زنتها ما بين ٢٢٥ و٢٦٠ كيلوغراماً. ومن ثَم، لو قمت بتشجيعهم وطلبت إليهم العمل تحت إشرافك، فإنهم سيكونون مفيدين حتماً.»

الحل إذاً، كان واضحاً: الكوريون بحاجة إلى قيادة يابانية [١٨].

كما كانت الحال بالنسبة لحلفائهم النازيين، فإن موضوع التطهير - العرقي والأخلاقي والروحي - كان دائم الحضور في أدبيات اليابان إبان الحرب، ووجد له صدى في الدين والثقافة الشعبية، وكذلك في ألوان الحياة اليومية (بكل ما تحمله كلمة لون من معنى). ففي سنة ١٩٤٢، اشتهرت أغنية وطنية بعنوان «الجنود الإلهيون يسقطون من السماء»، وكانت بمنزلة تحية للجنود المظليين الذين كانوا يتساقطون على أعدائهم مثل «ورود بيضاء نقية» من السماء. كان اللون الأبيض هو لون اللباس الذي يرتديه كهنة ديانة "الشنتو" وهو أيضاً اللون الذي يتم ارتداؤه في أثناء عملية الطقوس التطهيرية اليابانية منذ زمن طويل. لكن اللون الأحمر الذي يمثل «السطوع» كان رمزاً يابانياً أيضاً. شرحت مقالة شهيرة بعنوان «التأسيس لرؤية عرقية يابانية عالمية» نشرت سنة ١٩٤٢ في واحدة من أشهر المجلات الشعبية في اليابان، السبب في أنّ اللون الأحمر هو لون الدم والحياة:

> ساد اعتقاد بأن مفهوم الطهارة التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من ديانة الشنتو يرتبط بنقاوة اللون الأبيض. ... لكن التجربة التي خضناها منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب، تظهر خطأ هذا الاعتقاد؛ وهذا الخطأ في واقع الأمر جلي لأولئك الذين انخرطوا في طقوس التطهير. إن لون الطهارة هو اللون الأحمر الشاحب الممتزج بوردية الدم؛ إنه لون الحياة نفسها. إن دفء الحياة هو ما جعل الكرز يتبرعم كرمز في روح «ياماتو».

ولكن لم يكن كافياً بالنسبة إلى اليابانيين أن يكونوا من «ذوي الدماء النقية» إذا كانت دماء شعوب العالم من حولهم ليست كذلك. وهكذا فقد نودي على اليابانيين كي يساعدوا في تنقية القارة الآسيوية برمتها وإصلاح سكانها الوسخين من أشباه الحيوانات والعفاريت من أجل بناء «الدولة الأرقى المتسمة بالكمال والطهارة.» وقد فسّرت مجموعة من أساتذة جامعة كيوتو الإمبراطورية الحرب على أنها وسيلة «خلاقة وبنّاءة» من أجل الدفع بعملية «التطهير من الذنوب» التاريخية. عندما يقدم المرء حياته ثمناً في المعركة، فإن ذلك يُعد أكثر الإنجازات طهارة على الإطلاق. كتب في هذا المجال المؤرخ جون داوار أن «التضحيات في أوقات الحروب تُعد فعلاً مقدساً في حقيقة الأمر؛ إنها حمام من الدم يتحول إلى شكل سامٍ من أشكال التطهير الروحي»[١٩].

ولكن ماذا عن الشعوب الآسيوية الأدنى مرتبة، والتي كان يراد لها أن «تتطهر»؟

الاحتلال الياباني لبرّ شرق آسيا
مهمة إلهية

عندما سقطت القنابل على ميناء بيرل هاربر في السابع من شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة ١٩٤١، ظهرت اليابان على أنها قوة عالمية كبرى تمتلك جيشاً هائلاً وطموحات إمبراطورية توسعية كانت تتحقق بسرعة كبيرة. بعد ذلك بسنة، استولت اليابان على إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وتايلاند وأجزاء من بورما والصين والفيليبين والعديد من الجزر في جنوب المحيط الهادي؛ وكانت في الأساس تسيطر على كوريا ومنشوريا وتايوان. كانت السياسة التي اتبعتها اليابان في كل تلك المنطقة التي أطلقت عليها «الفضاء الذي يتم فيه تقاسم الازدهار» - باستثناء وحيد سوف يتم الحديث عنه لاحقاً - سياسة ملؤها التعصب في جوهرها.

لم يكن اليابانيون يهتمون في استمالة قلوب وعقول الشعوب المستعمَرة شأنهم في ذلك شأن النازيين. كان الهدف البديل لليابان الإمبراطورية يتمثل في استنزاف

الموارد المحلية، واستغلال اليد العاملة للسكان الأصليين من خلال تشغيلهم في أكثر الأعمال دونية وخطورة، واستخدام المناطق المحتلة في نهاية المطاف لتكون مناطق استيطان لليابانيين الذين كانوا يعانون من مسألة الاكتظاظ السكاني [٢٠].

ففي كوريا على سبيل المثال، كان العمل القسري يفرض على المواطنين هناك على نطاق واسع. حيث تم تجنيدُ ما يقرب من مليون من الشباب الكوريين وإجبارهم على القيام بأعمال شاقة في مجال البناء ومناجم الفحم، وكان يتم ترحيلهم إلى أماكن بعيدة جداً عن مناطق سكناهم حتى إلى اليابان أحياناً. وكانت الآلاف من الشابات الكوريات اللواتي وُعِدن باستلام «وظائف إدارية» قد فرض عليهن القيام بالترفيه عن الجنود اليابانيين. كما فرضت ضرائب كبيرة على السكان المحليين بالرغم من أن اليابانيين كانوا قد استولوا على معظم إنتاج البلاد من أهم مادة غذائية هي الأرز تاركين الكوريين يقتاتون على الشعير وحبوب الدّخن. انتشرت المجاعة بين السكان بسرعة على أثر ذلك؛ وفي الوقت نفسه، منعت اللغة الكورية من التداول بوصفها لغة للتدريس في المدارس الحكومية، واستبدلت الكنية التي تحمل أسماء العائلات الكورية بأسماء يابانية، وأصبح التعبد على الطريقة الشينتوية إلزامياً. حاول اليابانيون أيضاً وضع حد للتقاليد الكورية التي تقضي بارتداء ملابس بيضاء. لكن عندما فشلت جهودهم الرامية إلى ذلك، عمد المسؤولون اليابانيون إلى رش الحبر أو الطلاء على الكوريين الذين يرتدون الألبسة البيضاء[٢١].

كانت الأمور أكثر سوءاً في إندونيسيا. هناك، لم يقم اليابانيون حتى بمحاولة «تحضير» أهالي جاوا أو السلواسيين؛ ذلك أن اليابانيين لم يكونوا يرون في إندونيسيا سوى حوض من الموارد التي حرصوا على تجفيفها. كان اليابانيون ينظرون بنهم إلى احتياطات إندونيسيا الهائلة من النفط والأخشاب واليد العاملة، وهي موارد كانوا في أمس الحاجة إليها.

من المفارقة أنه عندما وطأت أقدام اليابانيين أرض إندونيسيا للمرة الأولى سنة ١٩٤٢، كانت نظرة الكثيرين من أهالي إندونيسيا إيجابية تجاه مستعمريهم

الجدد. يكفي أن اليابانيين طردوا الهولنديين الذين كانوا سادة إندونيسيا الاستعماريين لأكثر من ثلاثمئة سنة، والذين كان شعب إندونيسيا يكن لهم الكثير من الكراهية. رحب العديد من قادة إندونيسيا الوطنيين بمن فيهم سوكارنو الذي أصبح فيما بعد رئيساً لإندونيسيا باليابانيين بصفتهم محررين، وصدّقوا كلام اليابانيين الإنشائي حول الوحدة الآسيوية التي انتصرت على الغرب. وكان هذا التأييد لليابان يتخذ شكل شعارات مثل: «اليابان حامية آسيا»، و «اليابان نور آسيا»، وهي شعارات أصبحت متداولة بين الأحزاب الإندونيسية المطالبة بالاستقلال في ذلك الوقت. ولكن كما فعل النازيون بالضبط في أوكرانيا، فإن التعصب الشديد والفاضح الذي أبداه اليابانيون تسبب في انقلاب مرير وسريع للشعب الإندونيسي على «أسياده» الجدد [٢٢].

مارس اليابانيون في أثناء مدة احتلالهم لإندونيسيا التي دامت من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٥ قسوة وجبروتاً عرقياً تجاوزا بكثير حتى ممارسات الهولنديين أنفسهم. كانت عقوبة الجلد والضرب بالعصي التي تمارس بحق السكان المحليين في الأماكن العامة أمراً شائعاً. وكان يُطْلَب من المسلمين الملتزمين الاعتراف بألوهية الإمبراطور الياباني، وهو ما شكل تناقضاً صارخاً مع معتقداتهم الدينية. وصل إخضاع الإندونيسيين للعمل القسري إلى حد لا يطاق، وكانت قسوته من الشدة بحيث لا يمكن تخيل مثيل لها؛ تفاوتت التقديرات بشأن أعداد من أُخِذوا من بيوتهم بالقوة وأجبروا على القيام بأعمال تقصم الظهر، وأدت إلى وقوع مئات آلاف من القتلى بين الإندونيسيين. قدّر بعض المؤرخين هذه الأعداد ببضعة ملايين. وكانت عمليات اقتلاع الغابات من الشمول بحيث إن قرى بأكملها تحولت إلى سهول جرداء غمرتها الفيضانات. أدت مصادرة الأراضي الزراعية لأغراض عسكرية إلى حدوث مجاعات للملايين من الناس الذين يعتمدون في معيشتهم على الزراعة. كما أصبحت الملابس والأقمشة من الندرة بحيث إن العديد لم يكن باستطاعتهم مغادرة منازلهم لأنهم لا يملكون ما يسترهم من اللباس. وكان من الشائع أيضاً في

أثناء الاحتلال، التعذيب بواسطة الطعن بالحراب والصدمات الكهربائية، وإكراه المساجين على ابتلاع كميات كبيرة من المياه، أو خلع رُكَبهم.

أما أكبر كارثة إستراتيجية حلت باليابانيين فكانت في سنغافورة، وهي مستعمرة بريطانية منذ سنة ١٨١٩. قبل وصول اليابانيين سنة ١٩٤٢، كانت سنغافورة مركزاً مزدهراً للتجارة العالمية. لكن ازدهار سنغافورة والحكم البريطاني انتهيا فجأة سنة ١٩٤٢ عندما وقعت تلك الجزيرة في أيدي اليابانيين بعد معركة طاحنة نتج عنها أكبر استسلام لقوات قادها البريطانيون في التاريخ. (وقع حوالي ١٣٨ ألفاً من الجنود البريطانيين والأستراليين والهنود في أسر القوات اليابانية.) كان اليابانيون يهدفون إلى جعل سنغافورة العاصمة الاقتصادية لجنوب شرق آسيا الذي تسيطر عليه اليابان. لكن هذه الخطة فشلت فشلاً ذريعاً.

قام العساكر اليابانيون فور احتلالهم للجزيرة بمنع شعب سنغافورة المكون في غالبيته من الصينيين بممارسة أي نشاط اقتصادي قبل الحصول على تصريح رسمي من السلطات. أعطيت الامتيازات والعقود للشركات اليابانية الكبرى مثل ميتسوبيشي وميتسوي، بينما سُلّمت المصالح الصينية الصناعية الأقل حجماً وكذلك تجارة التجزئة إلى«صيادي الامتيازات» اليابانيين الذين لم يكن الكثيرون منهم يملك ما يكفي من المهارة أو الخبرة، أو الشبكات التجارية لإدارة اقتصاد سنغافورة. وكانت النتيجة أن التضخم الذي أصبح خارج السيطرة، والارتفاع الجنوني للأسعار، والفساد، والنقص الحاد في المواد الغذائية، أدى بالاقتصاد إلى الانهيار.

في غضون ذلك، اتخذ اليابانيون إجراءات وحشية من أجل اقتلاع المقاومين الصينيين. قامت القوات العسكرية اليابانية فيما أصبح يطلق عليه لاحقاً مذبحة "سوك تشينغ" بمهاجمة البيوت واحداً إثر الآخر في شهر شباط، فبراير، سنة ١٩٤٢، حيث جمعت السكان الصينيين الذين كانوا يُعدون من المناهضين للوجود الياباني بمن فيهم النساء والأطفال والعجزة. بعد أن احتجزوا في ظروف مرعبة،

وأخضعوا لاستجواب عنيف، ثم أُطْلِق سراح بعضهم. لكن الكثيرين منهم لم يُطْلَق سراحهم. جُمِع حوالي ٢٥ ألفاً من هؤلاء وحُملوا على متن شاحنات نقلتهم إلى أماكن بعيدة، حيث طعنوا هناك حتى الموت، أو أعدموا رمياً بالرصاص. وهكذا، فبدلاً من أن تكون سنغافورة منارة لفضاء تقاسم الازدهار الياباني، انحدرت بحلول سنة ١٩٤٥ إلى موئل للأوبئة، وسوء التغذية، وإلى مرتعٍ للقمع الوحشي.

كانت الصورة في بقية دول جنوب شرق آسيا لا تقل ألماً وقتامة. وكما كانت الحال بالنسبة لألمانيا النازية، فلا يجوز القول فقط إن اليابانيين لم يسمحوا للشعوب التي استعمروها بالمشاركة في حكم أنفسهم وتحسين أوضاعهم وتحقيق الازدهار لبلادهم. كان أحد رموز الاحتلال الياباني هو «سكة حديد الموت»، وهي السكة الحديدية التي بناها اليابانيون بين بورما وتايلاند التي كانت تعرف يومها بدولة سيام في أربعينيات القرن العشرين. لكي يكون باستطاعة اليابانيين بناء هذه السكة، كان لا بد لهم أن يجندوا رجالاً من كافة أنحاء آسيا كي يعملوا في ظل ظروف أقرب إلى العبودية. مات في ذلك المشروع قرابة ٦٠ ألف شخص. وصف كارلوس رومولو، وهو محرر في إحدى الصحف، وكان ممن هربوا من معسكر باتان في الفيليبين سنة ١٩٤٢، المشهد بعد عودته إلى مانيلا سنة ١٩٤٥:

> كان أولئك جيراني وأصدقائي الذين رأيت أجسادهم التي مزقها التعذيب وهي تدفع باتجاه كومات من البشر في شوارع مانيلا، كانت أيديهم مقيدة إلى الخلف وآثار طعنات الحراب تملأ أجسادهم. تلك الفتاة التي كانت تنظر من دون أن تنبس ببنت شفة، وكان نهداها الصغيران مثخنان بالجروح التي سببتها طعنات الحراب، كانت زميلة ابني في المدرسة. رأيت جثث رجال الدين والنساء والأطفال والرضع الذين مزقت أجسادهم الطعنات بهدف التسلية [٢٣].

كان الرد على تلك المذابح في الأراضي المحتلة كماً كبيراً من المقت لليابانيين ما يزال مستمراً في أجزاء عديدة من آسيا حتى يومنا هذا. وبينما كان هناك متعاونون مع الاحتلال في كل من تلك البلاد المحتلة بطبيعة الحال، انتشرت كذلك أعمال المقاومة والتخريب والعصيان. قامت في كوريا المظاهرات والانتفاضات الشعبية

مطالبة بالاستقلال عن اليابانيين. وفي الفيليبين وإندونيسيا ومناطق أخرى، قامت حركات المقاومة السرية بمقاتلة القوات اليابانية المحتلة مستخدمة أسلوب حرب العصابات [٢٤].

من المستحيل إثبات أن التعصب الياباني الوحشي هو الذي أدى إلى تحجيم طموحاته الإمبراطورية. يمكن القول إن اليابانيين كان لا بد أن يواجَهوا بشعور الكراهية، وبالمقاومة بصفتهم محتلين أجانب، بغض النظر عن طبيعة سياساتهم التي كان من الممكن أن يتبعوها مع شعوب البلدان التي احتلوها. إلا أن هناك منطقة احتلها اليابانيون واتبعوا فيها سياسة التسامح الإستراتيجي بدلاً من سياسة التعصب المعهودة؛ وهذا الاستثناء الوحيد الذي يدعو إلى الدهشة هو دليل قاطع على أن الحكم الياباني لشعوب دول آسيا التي استعمروها كان يمكن أن يكون أكثر فاعلية.

سقطت فورموزا التي تدعى اليوم تايوان في يد اليابانيين سنة ١٨٩٥ بعد انتصار اليابان على الصين في الحرب اليابانية الصينية الأولى. في تلك الحقبة كانت اليابان ما تزال تركب موجة حكام التنوير (Meiji) في التحديث والتصنيع، ولم تكن حينها قد وقعت بعد في قبضة الجناح العسكري القومي المتطرف الذي استلم السلطة في ثلاثينيات القرن العشرين. كانت فورموزا التي تُعَد أول مستعمرة يابانية بالمعنى الرسمي تمثل ليس فقط مصلحة إستراتيجية عليا لليابان بسبب قربها من الصين، بل فرصة لإظهار بروز اليابان على المسرح العالمي بوصفها قوة إمبريالية محدثة. ولكن مهما كانت الأسباب، فقد اختلف احتلال اليابان لفورموزا بشكل كبير عن السياسة التي كانت تمارسها في مناطق مثل بورما وإندونيسيا وكوريا في أثناء الحرب العالمية الثانية.

بدايةً، يمكن القول إنه خلال العقود الأولى التي أعقبت احتلال فورموزا، لم يقم اليابانيون بقمع الثقافة المحلية بشكل علني. وفي الوقت الذي فرض اليابانيون على الكوريين حظراً على التحدث بلغتهم الأصلية أو استخدامها وسيلة للتعليم،

فإنهم سمحوا للفورموزيين بالتحدث بلهجتهم الأصلية المحلية الصينية، وبتعليم الأطفال التايوانيين اللغتين الصينية واليابانية في مدارس تمولها اليابان، بالإضافة إلى تدريب الضباط الصينيين على التحدث باللغة الصينية أيضاً. قامت السلطات اليابانية سنة ١٩٢٢ بدمج مدارس النخبة الابتدائية في الجزيرة، وبذلك فقد سمحت للأطفال التايوانيين بالدراسة جنباً إلى جنب مع أطفال مستعمريهم اليابانيين [٢٥].

كان من بين أهم المؤسسات الفورموزية التي تركها اليابانيون وشأنها نظام الحكم المحلي الصيني (Pao-Chia) الذي تنضوي تحته تجمعات لمئة من العائلات تقريباً ويكون كل واحد من هذه التجمعات مسؤولاً عن أي أخطاء يمكن أن يرتكبها أي من أفراد هذه التجمعات. حاز اليابانيون على ولاء النخب المحلية في فورموزا من خلال الإفادة من هذا النظام، والسماح للعائلات الفورموزية ذات الشأن الاجتماعي بالمحافظة على مراكزها القيادية داخل مجتمعاتها. ومن أجل هذا الهدف أيضاً، قامت السلطات اليابانية المستعمِرة بمنح امتيازات للفورموزيين البارزين مغدقين على بعضهم أحياناً لقب "السيد النبيل" (shisho). في الوقت ذاته، استثمر اليابانيون أموالاً في البنية التحتية الفورموزية وفي حقل الزراعة؛ فقد شقوا الطرقات، وبنوا السكك الحديدية، ومجاري الصرف الصحي، والسقاية، وأسسوا للإنتاجية الزراعية. ازدادت كمية الغلال بشكل كبير لدرجة أنه بعد تصدير كميات كبيرة من الأرز إلى اليابان، بقي لدى الفورموزيين كميات من الطعام أكثر نسبياً مما كان متوافراً للصينيين في البر الصيني المقابل.

بالتأكيد كان اليابانيون يمارسون بعض أشكال القمع في فورموزا، حتى قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. فقد قدر عدد القتلى من المقاومين الفورموزيين على يد الجيش الياباني بحوالي ١٢ ألفاً خلال المدة الأولى من الحكم الياباني. ولكن ما يثير الدهشة أن اليابانيين مع ذلك، استطاعوا نيل ثقة السكان المحليين وولائهم. خدم حوالي ثمانين ألفاً من الفورموزيين بصفة متطوعين في الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية. ما يزال التايوانيون إلى يومنا هذا يشعرون بالارتباط

بالثقافة اليابانية. بعض التايوانيين المعمرين الذين عاشوا تحت الاحتلال الياباني ما زالوا يتحدثون اللغة اليابانية بين الحين والآخر، ويتذكرون أن أولئك المستعمرين جلبوا معهم إلى فورموزا النظام والحداثة وحكم القانون. لو مارس اليابانيون سياسات مشابهة في مستعمراتهم الأخرى المشتركة في "الفضاء الذي يتم فيه تقاسم الازدهار"، لكانت محاولتهم لفرض هيمنة إمبراطورية، أكثر نجاحاً بكثير[٢٦].

لا يمكن إنكار مدى فاعلية التعصب. ربما لا توجد قوة على وجه الأرض أكثر إثارة للمشاعر، أو أكثر استحضاراً للهوية، أو أكثر تحريضاً على خوض الحروب من القومية العرقية - اللهم إلا إذا استثنينا الأصولية الدينية وتفرعاتها الجهادية. ولكن من حسن حظ العالم أجمع، أن العناصر التي تثير المشاعر في هذه الأيديولوجيات هي نفسها التي تضع حداً لقدرتها على التمدد والاستمرار.

ما يبعث على الدهشة أن الألمان أخفقوا في الإفادة من فرصة الحصول على دعم عشرات الملايين من الروس والبولنديين والأوكرانيين وآخرين ممن كان يمكن أن يشكلوا دعماً كبيراً لهم، وحتى أن يكون الكثيرون منهم جنوداً يقاتلون في صفوفهم. كما أن من المدهش أن اليابانيين الذين رأوا في تايوان مدى فاعلية التسامح الإستراتيجي في الأراضي المحتلة، اختاروا ممارسة سياسة القمع الوحشي وارتكاب المجازر في حق الشعوب المستعمَرة في مناطق أخرى، وهم بذلك ضمنوا نشوء أشرس أشكال المقاومة الممكنة لحكمهم. لكن الأيديولوجية التي أوصلتهم إلى سنام السلطة - وهي العوارض نفسها المرضية القومية القائمة على أساس عرقي، التعطش نفسه للدماء وممارسة سياسة التطهير العرقي - هي نفسها التي منعت ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية من ممارسة سياسات كان لها أن تخدم توجهاتهم بغرض تبوء الموقع الذي من خلاله يستطيعون السيطرة على العالم. غني عن القول إن الأيديولوجيات التي تنادي بالتفوق العرقي وتدعو إلى ممارسة التطهير العرقي لا يمكن لها أن تخلق شعوراً بالولاء عند الشعوب التي يتم التخطيط لإبادتها، أو تساعد في استقطاب رأس المال البشري اللازم من هذه الشعوب بما يخدم مصالح أصحاب تلك الأيديولوجيات.

التسامح وحده يمكن له أن يحقق مثل تلك النتائج. سيتبين لنا - ونحن نقفل عائدين إلى القرن الحادي والعشرين في الفصل الآتي - أن ثلاثة من أهم متحدّي هيمنة الولايات المتحدة اليوم ومن بينهم الصين والاتحاد الأوروبي قد تعلموا الدرس جيداً. هل يمكن لأي من هذه المجتمعات تحقيق كم وافٍ من الثروة والسلطة بما يكفي كي تضع نهاية لسياسة القطب الواحد المسيطر على العالم، الذي تمثله أمريكا؟

obeikandl.com